توجيه الفرد والامة

-٦-

بقلم : الاستاذ هادي العصامي

النزاع بين الفضيلة والرذيلة

إن سعادة كل انسان بحسبه ، فالعالم يرى نفسه سعيداً حينما يحل معضلة علمية ؛ أو ينهي مشكلة دراسية ، والعامل حين ينهي عمله ؛ والجندي حين يؤدي واجب وطنه ؛ الى غير ذلك من اسباب السعادة ، التي هي سعادة للشعب عامته ، ولكن متى تكون هذه السعادة مشتركة للشعب بكامله ؟ .

يجب أن يجرد المرء قلبه من الانانية ، ويكون ضميره نزيهاً كقلب الرضيع ، طاهراً كغيث السماء ، فالعالم يسعى حثيثاً في طلب العلم ، لا ليقول : نحن وهو ، بل ليخدم به امتـــه ؛ والعامل والمزارع وغيرهما من ذوي المهن والحرف ؛ انما يعملون ليضيفوا خيرات الى خيرات العالم التي ادخرها السلف الصالح لهم ؛ عندئذ يدرك هذه السعادة ؛ ولا يرى انسانا اسعد منه في تلك الآونة وتكون سعادته مشتركة ، ولكن لما جهلنا واجبنا الديني جهلنا الواجب الانساني ، فكان لكل غاية يسعى اليها من وراء عمله ، فواحد يعمل لأجل شهواته ، وآخر ليحلق بنفسه في سماء الشهرة والعظمة ، الأجدر به التشهير لانه يعيث ويفسد من طريق العلم ، فوجدت الرذيلة بذلك متسعاً في القلب ، فاخذت تنازع الفضيلة مركزها .

يقال : ان الاديان كلما تقادم الزمن على نشأتها ؛ يتضاءل عنصرها الاخلاقي ، يمكن ان يقال ذلك في الاديان التي لم تساير العصور حسب مقتضياتها ، وقد دخلها من التغيير والتبديل حسب الاهواء ؛ ما أضاع جوهرها الاساسي — على القول بأن ما جاءت به أو لو العزم من الرسل ، هو نفس ما جاء به نبينا محمد [ص] — أما الدين الذي لم يزل ولن يزال يحتفظ بجوهره وعنصره الاخلاقي ؛ مع مسايرته الى التطور والارتقاء كالاسلام فلا يؤثر تقادم الزمن على نشأته ، بل يتجدد بتجدد الزمن ، ولكن ركود الثقافة في العصر المظلم — العثماني — اوجب بعد المسافة بيننا وبين ديننا الحنيف ، وما ابعدنا عنه جهلنا تعاليمه ؛ فخلنا انه لا يتفق وروح العصر الراهن ، ولازم ذلك الجهل ان يتضاءل عنصره الاخلاقي بين المسلمين انفسهم ، اما هو بحد ذاته محتفظا بجوهره اذ لم يطرأ عليها تغيير أو تبديل ، فالتضاءل للجهل به ولما جهلنا جوهره وجدت الرذيلة متسعاً في القلوب ؛ فاخذت تبذر بذورها ، لتزاحم غرس الفضيلة في منبتـه ، والبشر اذا لم

قال التنوخي على لسان شخص يتكلم عن لص لقيه في الطريق بين واسط وبغداد وكان عليه فضل « قلت يا هذا كيف بلغت هذه الحال ؟ قال : نشأت فلم أتعلم غير معالجة السلاح ، وجئت الى بغداد اطلب الديوان فما قبلني أحد فانتظمت الى هؤلاء وطلبت الطريق فلو كان انصفني السلطان وانزلني بحيث استحق من الشجاعة لانتفع بخدمتي وما فعلت هذا » (١) وهي قصة تعرب عن رغبة شاب يريد العيش بوسائل شريفة فلا يجد ذلك المجال وحينئذ يتنكر للمجتمع وينتقم لنفسه . ويذكر التنوخي قصة اخرى عن اللص ابن حمدون « يا هذا لعن الله السلطان الذي أحوجنا الى هذا فانه قد اسقط ارزاقنا فاحتجنا الى هذا الفعل ولسنا فيما نفعل ارتكاب امر أعظم مما يرتكبه السلطان أنت تعلم ان ابن شيراز في بغداد يصادر الناس ويفقرهم حتى يأخذ الموسر المكثر فلا يخرج من حبسه وهو يهتدي الى شيء غير الصدفة وكذلك يفعل البريدي بواسط والبصرة والديلم ويتجاوز ذلك الى الحرم والاولاد فاحبسونا نحن مثل هؤلاء . » (٢) وتبدو في هذا القول النقمة الشديدة التي يحملها اللص على المجتمع من جهة ثم على مبلغ ظلم الولاة للرعية ، وان هـذا الظلم نفسه هو الذي يقودهم الى هذه الاعمال وانهم انفسهم لا يرتضون ذلك لولا شدة حاجتهم اليه فهو يقول « لعن الله السلطان الذي احوجنا اليه » ؟

عبد الجليل الطاهر

(١) التنوخي ، الفرج بعد الشدة ، ج [٢] ص [١٠٧]

(٢) التنوخي ؛ الفرج بعد الشدة ، ج [٢] ص [١٠٨]

يكن له وازع ديني يحول بينهم وبين ما كان من طبيعتهم ، تجد الرذيلة هناك ارضا صالحة لنموها وانتشارها .

أما الفضيلة فهي والدين كالقلب والرئتين ؛ فأيهما يفتريه الخلل يحصل لا محالة التعطيل عن العمل في الثاني ؛ والدين هو العنصر الحيوي للفضيلة ؛ فاذا جهل الانسان تعاليم دينه ، فبطبيعة الحال ينجر الى طبيعته التي نشأ عليها ، فلا تراه يقيم للاخلاق وزناً ، إذ لم يكن في قلبه بقية من الفضيلة ؛ فحينئذ كيف يفكر بترك الشر قبل الفكرة بفعل الخير ؟ ! وفعل الخير فضيلة بنفسها ، وقد تازعتها الرذيلة عرشها ، واستوت على منصة الحكم ؛ فتصرفت في الجوارح حسبما تهوى ، وظلت الفضيلة في معزل عن العمل ، فتولد من ذلك التخاصم والضغينة والريبة والشكوك ، وذهب وازع الحياة الذي هو مصدر كل فضيلة ، وكل من هذه يهدينا الى معالم الشر ، ويبعدنا عن معالم الخير .

والفضيلة هي السبب الوحيد لسعادة الفرد ؛ كما انها السبب كذلك في سعادة المجتمع ، وان الذي يرشد الانسان اليها ، هو صوت يخرج من اعماق ضمير الانسان ، وهو العقل الذى مركزه القلب ، وهذا الصوت لم يخل منه فرد سواء صغر حتى نفذ في باطن الارض ، أم كبر حتى امتطى ظهور الجياد ، وحلق في الفضاء ، ولو تخلى الانسان عن عناية هذا الصوت لأسلم نفسه بغير حساب الى سورة الرذائل .

المدرسة

ان المدرسة مؤسسة بقصد ما يحتاج اليه الشعب ، وما تستفيد منه عامة طبقاته دون ان تجعل فوارق بين الطبقات الفقيرة والعاملة والثرية بل يجب ان تعتني بالفقيرة والعاملة عناية خاصة ، دون ان تجعل امتيازات للاخيرة على غيرها ، ولم تؤسس على ذلك القصد فحسب ، بل مع نمو النشء نمواً طبيعياً من الوجهتين المادية والمعنوية ، على ان تقربه من البيئة التي يعيش فيها ، والمحيط الذي يحيى فيه ، لان البيئة هي المعلم الحقيقي ، والحياة في ذلك الوسط هي المدرسة الحقيقية التي تنشيء العمال والصناع والتجار على الرغم من تقصير المدرسة في هذه الناحية ، التي هي من أهم نواحي الحياة الحيوية للشعب ، ولكنها وجهت لغير الغاية التي اؤسست

من أجلها ، فابعدت الطالب عن البيئة وعن اساليب مدرسة الحياة ، حتى كأنه يعيش في بيئة اخرى ، وقد تربى على اساليب غير اساليب مدرسته ؛ ثم غذته روح التمرد على المقدسات وملأت دماغه بالوهم دون الحقيقة ؛ فخال انه ناجح في مضمار هذه الحياة .

وهذا من أهم مواضع النقص في المدرسة ، ولما ان احتفلت بما لا يلائم حياة الشعب ، واهملت أهم نواحي الثقافة ، التي هي أهم منبعاً لثروة البلاد ؛ يدر عليها في كل آن بالخير الوفير ، أوجب أن تكون وجهة نظر الطالب أن يحوز على الشهادة ، ليشغل منصباً من مناصب الدولة وليس لنا أن نحكم بخطأ الطالب في وجهة نظره ما دامت المهن الحرة معدومة الوجود ؛ إذ ان اجتفاء المدرسة بالنظريات التي لا تعود على الشعب بأية فائدة ؛ اوجب حرمانه من المعامل والمصانع ، ثم ان الرأس مالية الآخذة بخناق البلاد لم تفكر بطريق غير الربى ، تستورد به دم الشعب ، وتخزنه في صناديقها ، حتى انها تركت الزارع يفترش الارض ؛ ويلتحف السماء في صيفه وشتاه ، وهذه الكلمة أدق صورة ، لما وصلت اليه حياة الشعب من ظلم المرابين وعيثهم .

والاسلام ما حرم الربى إلا لأنه الداء الوبيل الذي يقضي على حياة الشعوب ، وما أباح التجارة والصناعة إلا لما فيها من عميم النفع لكل طبقات الشعب ؛ ولكن ما أوجب هذا الانكباب على الربى إلا بعدهم عن الدين ، فخرجوا على نواميسه المقدسة .

والمدرسة كما هي مسؤولة بأن تخرج عمالاً وصناعا اخصائيين ومفنين ؛ فالحكومة مسؤولة بايجاد معامل ومصانع ، تكفل حياة آلاف من العمال ، ولو كان هناك روح لتأسست شركات تعاونية بدافع الاخلاص الى الشعب ؛ وأنقذته من البطالة ، واضافت الى رأس مالها ارباحا عظيمة مع الفائدة التي تسعد بها ابناء الشعب السعادة المشتركة ، ولنشلته من الفاقة التي سببت الركود في الثقافة والنبوغ ؛ ولما لم تكن يجب ان يساق الرأس ماليون بعصى الارهاب الى فتح معامل ومصانع ، تنقذ الشعب من البطالة ، وتدر بالخيرات على الامة عامتها ، كل ينال نصيبه حسب الواجب الذي يقوم به ، والعمل المتكفل بانهائه .

يجب أن نفكر ونعمل لأصلاح المدرسة قبل كل شيء ، ونسد هذا النقص الذي اوجب ركود النبوغ في الامة ؛ كما

من وحي القاموس

بقلم : ابو سنار صادق الملائكة

-٤٥-

ومن المتقدمين الذين كتبوا عن اسنا جعفر بن ثعلب الاوقوى صاحب كتاب الطالع السعيد وقد قال عنها انها بلدة كبيرة حسنة العمارة مرتفعة الأبنية مشتملة على مايقارب ١٣٠٠٠ منزل ومدوستين وحمامين واسواق وكان بها بيوت معروفة بالاصالة والرياسة والفضائل حتى قيل انه كان بها في وقت واحد سبعون شاعراً وخرج منها جمع كبير من اهل العلم والادب وكان بها جعفر بن حسان الأسنائي الذي يقول فيه جعفر بن شمس الخلافة من قصيدة :

فاسنا غدت تحكي العراق وقدْ غدا
ابو الفضل ذو الرأي الرشيد رشيد

ثم قال وكان بها من البيوتات بنو السديد وبنو الخطيب وبنو اشواق وبنو النضر وكلهم رؤساء اعيان غير ان الشر يغلب الخير فيها والتسامح في الشهادة ينسب اليها وهي ضد المدينة المنورة فان تلك تنفي خبيثها وهذه تخرج عنها اخيارها فقلما يظهر بها عالم أو صالح إلا انتقل عنها وسكن غيرها وفيها يقول الشمس الرومي :

ستخرب ارض اسنا عن قريب ونزعق في أزقتها الذئاب
ففي شرقيها يوم كبير وفي غربيها سكن الغراب

يشير الى رئيسين بها اسمري اللون ثم قال وكان التشيع باسنا فاشيا ... ثم اخذ كعادته يهذي بما لا يدري .

والمنسوبون الى اسنا كثيرون نذكر منهم عبد الرحمن ابن علي بن الحسين بن شيث القاضي جمال الدين الاموي الاسنائي صاحب ديوان الانشاء للملك عيسى ولد باسنا سنة ٥٥٠ ومات ٦٢٥ هـ وكان شاعر وهو القائل من قصيدة :

ما لقلبي الى السلو طريق أنا من سكرة الهوى لا افيق
ضحكوا يوم بينهم وبكينا فتراءت سحائب وبرق

وكان ابن عنين كثير الهجاء لهذا القاضي فهو يقول فيه مرة :

الله يعلم يا ابن شيث ما حصلت من الكتابه
إلا على الداء الذي خصت به تلك العصابه

ويقول فيه اخرى :

أنا وابن شيث والرشيد ثلاثة لا يرتجي فينا لخلق فائده
من كل من قصرت يداه عن الندى يوم الندى وتطول عند المائده
فكأننا واو بعمرو الحقت أو اصبع بين الاصابع زائده

ومنهم : سهل بن حسن الاسنائي المذكور في الخريدة والذي مات قبل سنة ٦٧٠ هـ وهو الذي يقول من قصيدة :

وصمم الحي في عذلي فقلت لهم عني اليكم نبي عن عذلكم صمم
ان الضراغم لا تلقي فرائسها حتى تفارقها الاجبال والاجم
والهندواني لا يحوي به شرف حتى يجرد وهو الصارم الخذم

ومنهم : عبد الملك بن الاعز بن عمران الاسنائي النحوي

اوجب أن يكون لخريجها تجاه واحد ، هو الوظيفة لا غير ، لأن اصلاح كل شيء منوط باصلاح المدرسة ، وهذا النقص الذي ندركه في الحياة ، لم ينبعث الا من نقصها ، ولولاه لأخذ كل من خريجيها تجاهه المنوط برغبته ؛ وإذ ذاك ينبعث النبوغ من مرقده كما ينبعث الطير من وكره عندما يشق سيف الفجر حشا الظلماء فترى ثمرة النبوغ ، ونتاجه الذي يوفر اسباب المعيشة ، ويضيف خيرات الى خيرات العالم .

والطالب لا يتعلم تعليما حقيقياً إلا بدافع نفسي ؛ ورغبة اكيدة وليس لنا أن نقسره على تعلم علم مهما كان مفيداً وضروريا ، اذا لم تكن فيه رغبة ملحة الى ذلك العلم ، اذ أن دراسة كهذه ، سواء ارغم عليها ، أم حطم رغبته ، واجبر نفسه عليها ، ليست إلا كنزهة الرجل الذي دخل الحديقة ، وجعل نزهته على خط مستقيم ، اختصاراً للوقت ، وهو على هذه الحال لا يكاد يدخلها حتى يرى نفسه خارجا منها ؛ دون أن يمتع نفسه بروض جمالها الساحر ، وينعم طرفه بمنظر الازاهر الغضة المتنوعة المتناسقة ، والاشجار الباسقة .

هادي العصامي